

كيفية التعرف على الله تعالى

فإذا قيل لك: يَا سَيِّدِي عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ نقول: بآياته وبمخلوقاته. تَعَرَّفَ إِلَى عِبَادِهِ بِالآيَاتِ وَبِالمَخْلُوقَاتِ الَّتِي نَصَبَهَا كالدَّلَالَاتِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى عَقْلاً؛ فَتَفَكَّرَ فِي هَذِهِ الآيَاتِ فَعَرَفَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِخَالِقِ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَعَرَفَ أَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ، وَأَنَّ الَّذِي خَلَقَهَا هُوَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّ الرَّبَّ العَظِيمَ المَالِكَ لِكُلِّ شَيْءٍ، نَصَبَ هَذِهِ الآيَاتِ وَالدَّلَالَاتِ لِتَدُلَّ العِبَادَ عَلَى أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَالِكُهُمْ وَخَالِقُهُمْ، وَالمُدَبِّرُ لَهُمْ. لَمَّا تَكَلَّمَ إِبْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى الآيَاتِ الَّتِي فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ: { الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ } قَالَ: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المَسْتَحَقُّ لِلعِبَادَةِ، وَأُورِدَ أُدْلَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الخَالِقِ، وَأَنَّ نَصَبَ الآيَاتِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَاسْتَدَلَّ يَقُولُ ابْنُ المَعْتَزِ فَوَاجِبًا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُ الجَا حِدٌ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَجْرِيكَةٍ وَنَسْكِينَةٍ أَيْدًا شَاهِدٌ حَقًّا أَنَّ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ شَاهِدًا عَلَى عَظَمَةِ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى وَجْدَانِيَةِ اللهِ عِزِّ وَجَلِّ. لَوْ تَفَكَّرَ الإِنْسَانُ فِي أَصْغَرِ المَخْلُوقَاتِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى مِثْلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { إِنَّ اللّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مِثْلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا قُوَّهَا } . البَعُوضَةُ: النَامُوسَةُ هَذِهِ الَّتِي تَرْتَّبُ، وَالَّتِي قَدْ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى عَقُوبَةً لِبَعْضِ الخَلْقِ. ذَكَرَ أَنَّ التَّمْرُودَ لَمَّا عَتَا وَتَمَرَّدَ دَخَلَتْ فِي خِيَاشِيمِهِ نَامُوسَةٌ، وَعَجَزُوا عَنْ إِخْرَاجِهَا وَعَجَزُوا عَنْ تَخْلِيصِهَا مِنْهَا، وَلَمْ تَزَلْ تَأْكُلُ مِنْهُ إِلَى مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ زِيَادَةً فِي عَذَابِهِ. إِذَا تَفَكَّرْنَا فِي هَذِهِ النَامُوسَةِ؛ وَجَدْنَا أَنَّ لَهَا قَوَائِمَ، وَلَا بَدَّ أَنْ تَلِكَ القَوَائِمَ فِيهَا لَحْمٌ، وَأَنَّ فِيهَا عَصَبًا، وَأَنَّ فِيهَا عِظَامًا، وَأَنَّ فِيهَا مَخًا. وَكَذَلِكَ أَيْضًا لَا بَدَّ أَنْ لَهَا عَيْنَيْنِ تَبْصُرُ بِهِمَا، بَلْ يَكُونُ بَصَرُهَا وَنَظَرُهَا أَحَدًا مِنْ نَظَرِ الإِنْسَانِ، وَالدَّلِيلُ أَنَّهَا تَبْصُرُ الأَمَاكِنَ الرَّقِيقَةَ فِي جِلْدِ الإِنْسَانِ، فَتَقَعُ عَلَيْهِ. فِي جِلْدِ الإِنْسَانِ مَنَافِذٌ، وَهِيَ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا العَرَقُ، وَتُسَمَّى المَسَامَ، تَبْصُرُهَا، نَحْنُ لَا نَبْصُرُهَا، وَلَكِنْ تَبْصُرُهَا لِأَنَّهَا رَقِيقَةٌ فَتَقَعُ عَلَيْهَا، وَإِذَا وَقَعَتْ عَلَيْهَا أَعْطَاهَا اللهُ تَعَالَى هَذَا المَنْقَارَ الَّذِي هُوَ مِثْلُ خَرْطُومِ الفِيلِ -أكبر المخلوقات التي نشاهدها هذا الفيل الذي خرطومها نحو متر ونصف، أو قريب منه- خَرْطُومُهَا مِثْلُ خَرْطُومِ الفِيلِ تَعْرِزُهُ فِي هَذَا المَكَانِ الرَّقِيقِ الَّذِي بَصَّرَهَا اللهُ بِهِ، وَجَعَلَ بَصَرُهَا فِيهِ. وَإِذَا عَرِزَتْهُ امْتَصَتْ الدَّمُ الَّذِي فِي ذَلِكَ المَكَانِ، إِلَى أَنْ تَمْتَلِئَ مِنْ هَذَا الدَّمِ. فَالَّذِي خَلَقَهَا جَعَلَهَا مِثْلًا: { إِنَّ اللّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مِثْلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا قُوَّهَا } فَلَوْ تَفَكَّرَ الإِنْسَانُ فِي هَذِهِ البَعُوضَةِ لَعَرَفَ قُدْرَةَ مَنْ خَلَقَهَا، وَأَوْجَدَهَا؛ وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ فِي ابْتِهَالِهِ: يَا مَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَنَاحَهُ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلْبِيلِ وَيَرَى مَنَاطَ عَرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا وَالمُخَّ فِي تَلِكِ العِظَامِ التَّحْلِ امْتُنُّ عَلَيَّ بِتَوْبَةٍ تَمَحُوهَا مَا قَدْ مَضَى لِي فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ نَعَمْ. صَحِيحٌ أَنَّهَا مِنْ أَصْغَرِ المَخْلُوقَاتِ. فَكَذَلِكَ: وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ فَضْلًا عَنِ المَخْلُوقَاتِ الكَبِيرِ؛ المَخْلُوقَاتِ العَظِيمَةِ، الَّتِي إِذَا شَاهَدَهَا وَتَأَمَّلَ فِيهَا؛ عَرَفَ عَظَمَةَ مَنْ أَوْجَدَهَا. إِذَا نَظَرْنَا مِثْلًا فِي هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِي نَحْنُ نَتَقَلَّبُ عَلَيْهَا؛ وَجَدْنَا فِيهَا آيَاتٍ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: { وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } . تَكَلَّمَ العُلَمَاءُ عَلَى هَذِهِ الآيَاتِ، مِنْهُمْ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ "التَّبَيَانُ فِي أَقْسَامِ القُرْآنِ" فَتَكَلَّمَ عَلَى هَذِهِ الآيَةِ: { وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ } وَبَيَّنَّ أَنَّ فِيهَا عِبْرًا، وَأَنَّ فِيهَا آيَاتَ بَيِّنَاتٍ، وَتَكَلَّمَ عَلَى قَوْلِهِ: { وَفِي أَنْفُسِكُمْ } . يَعْنِي أَقْرَبَ شَيْءٍ إِلَى الإِنْسَانِ نَفْسِهِ، لَوْ تَفَكَّرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ؛ لَعَظَمَ قُدْرَ رَبِّهِ فِي قَلْبِهِ، وَعَرَفَ أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُ وَأَعْطَاهُ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ، وَجَعَلَ كُلَّ عَضْوٍ لَهُ وَطِيفَةً، كُلَّ عَضْوٍ وَكُلَّ حَاسِيَةٍ مِنَ الإِنْسَانِ، وَكُلَّ عَظْمٍ لَهُ وَطِيفَتَهُ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ خُلِقَ عَبَثًا، بَلْ كُلُّ عَضْوٍ لَهُ فَائِدَتُهُ حَتَّى مِثْلًا أَطَافِرُهُ فِي يَدَيْهِ. الأَطَافِرُ هَذِهِ لَهَا فَائِدَةٌ، حَتَّى أَصَابِعُهُ وَأَنَامِلُهُ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى تَنْقِيزَ وَتَنْبِسطَ، أَعْطَاهَا هَاتَيْنِ اليَدَيْنِ لِيَعْمَلَ بِهِمَا. لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ التَّعَمُّ، وَأَنَّ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَالَاتِ عَلَى أَنَّ الَّذِي خَلَقْنَا مَا خَلَقْنَا عَبَثًا. ثُمَّ مَيَّرْنَا بِمَا مَيَّرْنَا بِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ سَخَّرَ لَنَا هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ، مِنْ جُمْلَتِهَا الحَيَوَانَاتِ الَّتِي سَخَّرَهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: { وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا حَبِيرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَنْ يَتَّالَ اللهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَتَّالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ } . أَخْبَرَ بَانَهُ سَخَّرَ هَذِهِ البَهَائِمَ، هِيَ مَخْلُوقَةٌ مِنَ المَخْلُوقَاتِ اللهُ، أَعْطَاهَا اللهُ تَعَالَى قَوَائِمَ، وَأَعْطَاهَا سَمْعًا، وَأَعْطَاهَا بَصْرًا، وَأَعْطَاهَا أَيْضًا مَا تَتَّقُوهُ بِهِ، وَيَسَّرَ لَهَا القُوَّةَ الَّتِي تَقَاتُ بِهِ، وَأَهْمَهَا مَا يَكُونُ غِذَاءً وَمَا يَكُونُ لَيْسَ بِغِذَاءٍ، فَهِيَ تَعْرِفُ مَا يَنْفَعُهَا وَمَا يَضُرُّهَا مِنَ الأَغْذِيَةِ؛ فَلَا تَأْكُلُ الشَّيْءَ الَّذِي يَضُرُّهَا، بَلْ تَعْرِفُ النِّبَاتَ الَّذِي يَنْفَعُهَا، وَالَّذِي هُوَ غِذَاءٌ لَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ هِيَ مِنْ خَلْقِ اللهِ. وَمِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَى الإِنْسَانِ وَمِنْ تَفَضُّلِهِ أَنْ سَخَّرَهَا لَهُ، وَأَنَّ أَبَاحَ لَهُ أَنْ يَذْبَحَهَا، أَنْ أَبَاحَ لَهُ ذَبْحَهَا مَعَ أَنَّ الذَّبْحَ فِيهِ إِيلَامٌ لَهَا؛ إِيلَامٌ يَعْنِي إِزَالَةَ هَذِهِ الحَيَاةِ مِنْهَا، وَإِخْرَاجَ أَرْوَاحِهَا مِنْ أَجْسَادِهَا؛ وَكَذَلِكَ لِفَضْلِ الإِنْسَانِ، وَلِبَشْرَفِهِ أَبَاحَهَا لَهُ، فَقَالَ: { فَادْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا }؛ يَعْنِي سَقَطَتْ: { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ } . فَهَذَا مِنْ شَرَفِ الإِنْسَانِ، أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّ رَبَّاهُ بِنِعْمِهِ، رَبَانَا بِنِعْمِهِ، وَأَنَّ تَعْرِفَ إِلَى عِبَادَتِهِ بِهِذِهِ المَخْلُوقَاتِ؛ إِذَا نَظَرْتَ فِي هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ الَّتِي أَمَامَكَ تَرَى عَجَبًا مِنَ العَجَبِ، فَتَرَى مِثْلًا هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي سَخَّرَهَا اللهُ تَعَالَى، وَهَذَا القَمَرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: { وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبِينَ } أَي: يَسِيرَانِ دَائِمًا. { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي } الشَّمْسُ وَالقَمَرُ كِلَيْهِمَا مِنْهَا وَتَعَالَى: { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ } الآيَاتِ هِيَ العَلَامَاتُ الَّتِي تَصَبَّهَ لِعِبَادَتِهِ حَتَّى يَعْرِفُوا رَبَّهُمْ، وَيَعْرِفُوا عَظَمَتَهُ؛ يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى قُدْرَةِ مَنْ خَلَقَهَا، وَعَلَى قُدْرَةِ مَنْ أَنشَأَهَا. وَلِذَلِكَ دَائِمًا يَذْكُرُ هَذِهِ الآيَاتِ حَتَّى يُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى قُدْرَةِ الخَالِقِ تَعَالَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ } { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا } { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ وَالأَوَانِكُمْ } { وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَابِعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } { وَمِنْ آيَاتِهِ بُرُوجُكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَطَبَقَاتُهَا وَبُنْيَانُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُفَوِّمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ } يَخْتَمُ كُلُّ آيَةٍ بِقَوْلِهِ: { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } . { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ } { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } فَهَذِهِ آيَاتُ اللهِ الَّتِي تَعْرِفُ بِهَا إِلَى عِبَادَتِهِ، حَتَّى يَتَفَكَّرُوا، حَتَّى يَتَعَقَّلُوا، وَحَتَّى يَعْرِفُوا أَنَّهُمْ مَا خُلِقُوا عَبَثًا، وَلَا تَرَكُوا هَمَلًا، وَأَنَّ الَّذِي خَلَقَهُمْ قَدْ كَلَّفَهُمْ، وَأَمْرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ فَرَائِضَ، وَأَنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْبِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ فِي دِينِهِمْ وَفِي أَحْرَامِهِمْ، وَأَنَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعْاقِبَهُمْ إِذَا خَرَجُوا عَنْ طَوَاعِيَتِهِ، إِذَا خَرَجُوا عَنِ الاسْتِقَامَةِ؛ يَعْاقِبُهُمْ فِي دِينِهِمْ وَفِي أَحْرَامِهِمْ.